

الملاحح الأساسية للغزل الصوفي وجمالياته الفنية في ترجمان الأشواق لابن عربي

الدكتور: أمير مقدم متقى

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجامعة فردوسي مشهد /مشهد/ إيران

والأستاذ مساعد الدكتور: أحمد برويز زاده

قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة أذربيجان تبريز (إيران)

Résumé :

« TardjomanAshvaghe » d'Ibn Arabidans le recueil « TardjomanAshvaghe » est à la fois poète et critique, il trace les odes mais les conditions l'obligent parfois à interpréter ses propres poèmes et il préfère ne pas prendre des positions uniques dans ses poèmes, car ses interprétations ont tantôt des partisans et tantôt des détracteurs.

Le sens des vers d'Ibn Arabi dans le « TardjomanAshvaghe » est l'amour divin et certains de ses poèmes ont plutôt de la relation directe avec l'interprétation soufie qu'avec les gazelles.

En dehors de cela, le langage de ces gazelles, dans le cadre des poèmes soufies, est un langage extrêmement complexe. Car, il les exprime à l'aide des concepts philosophiques d'autant qu'il précise le terme « femme » et il insiste également sur le dialogue soufi.

Cette recherche descriptive et analytique, tente de faire une étude de ce genre de sonnet et de présenter ses particularités fondamentales et ses beautés artistiques dans le « Tardjoman A shvaghe » d'Ibn Arabi

Mots clés : Ibn Arabi, TardjomanAshvaghe, gazelle soufie, particularités artistiques, analyse.

ملخص:

إن ابن عربي في ديوان ترجمان الأشواق كان شاعراً، ثم ناقداً، نظم قصائده، ثم حدث له من الظروف ما حمله علي تفسيرها، وقد رجح أنه- في بعض قصائده- لم يقف في الحالتين موقفاً واحداً، لذلك وفق في بعض المواطن واعتسف في الأخرى.

معنى الأبيات الغزلية في ترجمان الأشواق، الحب الإلهي ونرى بعض القصائد أكثر انسباقاً مع التأويل الصوفي منها مع الغزل المباشر، كما أن فئة من القصائد يكاد يتوازن فيها الاتجاهان موازنة عادلة.

هذا و أن أكثر ما يميز في شعره أن لغته الغزلية في إطار الشعر الصوفي لغة صعبة و تقبلة حيث وظف الصوفية عبر المصطلحات الفلسفية الشائعة ولكنه يتمكن من أن يجسد التصوير الدقيق والجميل فيه، كما نرى بأنه يقوم بتصريح لفظ المرأة في غزلياته ويؤكد على خصوصية الحوار الصوفي الفنية والجمالية.

تهدف هذه الدراسة أن تتقف على أبعاد توظيف الغزل الصوفي و تبين ملاحظها الأساسية عند ابن عربي في ترجمان الأشواق معتمدة في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الرئيسية: ابن عربي، ترجمان الأشواق، الغزل الصوفي، الملاحح الأساسية، التحليل.

المقدمة:

كان الشعر الصوفي كثيراً وغزيراً غزارة النثر الصوفي، وشعراء الصوفية كثيرون في كل عصر، ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا واعتمدوا علي الارتجال والبديهة وأحسنوا، وأتوا في شعرهم بغر المعاني، وروائع الخيال، وبدائع الصور، وجميل التشبيهات، ولطيف المجازات. ونلاحظ أن الشعر الصوفي كان من جانب آخر تحولا للشعر الديني الإسلامي والغزل العذري المتصوف العائم في مسارج الجمال الروحي.

يعد ابن عربي من الشخصيات التي أثارت الكثير من النقاش حولها، فانقسم بين موالي متشدد له وعدو لدود يناصره أشدّ العدا ويحكم عليه بالكفر والخروج عن ملة الإسلام.

وحيثما تصفحت كتب التراجم لاحظت معالم مثل هذه المناكفات في شذرات الذهب حيث يقول المؤلف في ترجمته لابن عربي: "وقع له في بعض تضاعيف تلك الكتب كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها، وكانت سببا لإعراض كثيرين لم يحسنوا الظنّ به، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين، والعلماء العاملين، والأئمة الوارثين: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلاح عليها متأخر وأهل الطريق غيرة عليها، حتى لا يدعيها الكذابون، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد، غير مباين بذلك، لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها.¹

إن موقف الباحثين من ابن عربي يمكن وصفه بأنه كان متنازماً، إذ يرى بعضهم أعاد عبادة أحجار ووثنية الجاهلية وعبادة الحيوانات التي كانت آلهة الفراعنة واليهود. وقد يكون سبب هذه الموقف العدائي مقولة ابن عربي مذ أن يرى بأن ربه يتجلي أعظم تجل في صورة أنثى ينتها ذكر.

في الحقيقة إن ترجمان الأشواق لم يكن عبارة عن المجموعة شعرية خاطفة مثل كثير من مجموعات الشعر الصغيرة، بل هو أثر ارتكز عليه أعداء ابن عربي وأيضاً التصوف، لیبنوا عليه التهم التي تجعل من المتصوفة، وابن عربي قطب من أقطابهم ومنظر

رؤيتهم وأفكارهم، ويقال إنها اتخذت المرأة الهاً من دون الله، ومثل هذه التهمة تكفي بتكفير وإخراجه من الملة وجعله دمه مهدوراً.

نتمكن بالقول أن النص الشعري ترجان الأشواق يدور في فلك التغزل بفتاة محددة الهوية والشخصية والخصائص، ويربط الدارسون بين الغزل العذري والتصوف بحيث يبدو الغزل العذري وكأنه إرهاب للغزل الصوفي.

وقد هدف هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات التالية:

الأول: ما هي أهم المفاهيم الغزلية التي يتبناها ابن عربي؟

الثاني: لماذا وظف ابن عربي الغزل الصوفي كرمز للعلاقة مع المطلق في غزلياته لتعبير الحب الإلهي؟

الثالث: ما الأثر الذي تركه ابن عربي في الغزل الصوفي وما طبيعة وحدة الوجود في غزلياته؟

هذه الدراسة اعتمدت في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي ويتناول الباحثون

الغزل الصوفي من خلال شعره.

نبذة عن حياة ابن عربي:

يُعدّ ابن عربي من أبرز شخصيات التصوف، فهو سلطان العارفين والشيخ الأكبر وهذان اللقبان يشيران إلى مكانة ابن عربي وأهميتها في مجال التصوف ورجاله.² لُقّب ابن عربي بـ"محيي الدين" باعتبار مصتقاته إذ بلغت نحو أربعائة كتاب، ويعرف بالأندلس باسم ابن سراقه.³

ولد ابن عربي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسائة وستين هجرية

(560هـ) في مدينة مرسية بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية.⁴

نشأ في أسرة ثقافية نبيلة زاهدة و في هذا الجو الثقافي- الزهدي- تربى ونشأ ابن

عربي ولما بلغ من العمر ثماني سنوات انتقل إلى إشبيلية، وفيها تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمان البجائي.

ثم سافر إلى بلاد مختلفة كتونس و العراق و مدن أخرى إلى أن حلّ بمصر.⁵

وهناك انتهى مع فريق من الصوفية فحَاكُوا حوله وحول أصحابه لولا نفوذ أحد أصدقائه لوقع في الخطر، وفر إلى مكة سنة 604هـ، ثم واصل سفره إلى قونية في نواحي آسيا الصغرى وفي سنة 608هـ دخل بغداد على أن تكون آخر رحلاته، ومن بعدها عاد على مكة، وكان في كل ذلك يكتب رسائل وكتبا تلخيصا لما يرد عليه إن يقظة أو مناما، وهكذا توالى الرحلات والأسفار فحق عليه القول: الرحالة قبل العلامة.

استقر به الحال في سوريا ابتداء من سنة 620هـ ولم يغادرها حتى توفي فيها وكان ذلك: "ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 638هـ ودفن بسفح قاسيوس⁶.

موقف العلماء عن ابن عربي:

اختلف العلماء فيه اختلافاً كثيراً، منهم من نظر إليه على أنه أحد فلاسفة الإسلام، فهو عندهم إمام أهل الكشف، خاتم الولاية كما أن محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين؟

والحق أن الفلسفة الصوفية اكتملت بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر ابن عربي، فأصبحت فلسفة صوفية ذات منهج واضح تسعى التقريب ما وراء العقل إلى العقل.

ومنهم من نظر إليه على أنه رأس الضلالة والإلحاد. وعلى رأسهم ابن تيمية، وعلى القاري الذي له رسالة يرد بها على كتاب "فصوص الحكم" لابن عربي⁷.

أهم ميزات الغزل والملاح لابن عربي في ترجمان الأشواق:

يتكون الغزل المحور الأساسي الذي يمكن الدخول منه إلى ديوان ترجمان الأشواق، فالغزل أي تعبير عن مشاعر الحب ووصف الحبيبة، هو السبب الذي دعا ابن عربي إلى نظمه وذلك تعبيراً عن حبه لفتاة عذراء تسمى بالنظام وتلقب بـ"عين الشمس والبها" لجمالها، وهي بنت زاهر بن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني، أنها شاعرة، وأدبية فصيحة، أخلاقها كأنها روضة من الرياض، أما خطة للديوان فكان عندما نزل بمكة عام 598⁸.

إن ابن عربي ذكر أسماء المواضع التي ذكر شعراء الغزل في الأدب العربي، مثل: رامة، تهامة، حاجر... وذكر أسماء تغزل بهن الشاعر العربي، نحو: ليلى، زينب، سلمى. وجعل

العبارات بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوقّر الدواعي علي الإصغاء إليها. ضمن ابن عربي بعض قصائده في الترجان أحياناً لبعض شعراء الغزل الصريح في الأدب العربي، مثل عمر بن أبي ربيعة كما يقول في البيتين الأخيرين من قصيدة " مرضى من مريضة الأجان ":

"أيها المنكح الثريا سهيلاً! عمرك الله كيف يلتقيان؟
هي شامية، إذا ما استهلّت وسهيلٌ، إذا استهلّ يمانى"⁹

وصرّح أنه قلّدها في ترجان الأشواق أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق وعبارات الغزل اللائق. لكنه لم يبلغ بعض ما تجده النفس ويثيره الأنس. وجعل ابن عربي من المرأة البتول رمزاً للحب الإلهي، فهو في أشعاره يومي إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية جرياً على طريقته في التصوف.¹⁰

إن الشوق والحنين والتعلق والافتتان هي الروابط الرئيسية التي شدت الصوفي إلى المرأة التي ترك غياها عن ناظره مجالاً للحلم وللخيال الخلاق، وهو الخيال الذي شكل المرأة من الحجارة المكومة في تجارب الغزل، خاصة منه العذري، يقول ابن الفارض في إحدى مقاماته العشقية:

من لي بإتلاف روحي في هوى رشياً حلو الشائتل بالأرواح ممتزج
من مات فيه غراما عاش مرتقياً ما بين أهل الهوى، في أرفع الدرج
محجب، لو سرى في مثل طرته أغنته غرته الغرا عن السرح
وإن ضللت بليل من ذوائبه أهدى لعيني الهدى صبح من البلج
وإن تنفس قال المسك معترفا لعار في طيبه، من نشره أرجى

فبهاء الكلمات وإشراق العبارات وتوهج العواطف وسخاؤها هي المقولات الكبرى في هذا المقطع الشعري الذي -وإن- استرقد من تجارب شعرية سابقة، واستنار بفضل من قبسها، فإنه استفرد بالإلحاح على ثنائية النور والظلمة، المحيطة على قضية الخير والشر الأخلاقية، فالمرأة حسب الشاعر جامعة بين قوانين الحياة ونواميسها، وما تجمع هذه المتناقضات في المرأة إلا دلالة على تعالق جميع القيم لتشكيل الجمال الأنثوي الذي هام به الشاعر الصوفي.¹¹

الحقيقة أن العلاقة بين المتصوف والمرأة تبدو أكبر وأشمل وأعمق من هذا الأسئلة وغيرها، إذ أنها ابتدأت ببداية الخلق ذاته، وتشكلت محبة وشوقا وحنينا، يقول ابن عربي: "وعمر الله الموضوع من آدم الذي خرجت منه حواء بالشهوة إليها إذ لا يبقى في الوجود خلاء، فلما عمره بالهواء حن إليها حنينه إلى نفسه".¹² فالحنين -إذن هو الميثاق الذي يربط الرجل بالمرأة في العرف الصوفي، ويجمع بينهما، وهو حنين ينزع إليها لا باعتبارها ذاتا، ولكن باعتبارها الجزء المفتقد من الإنسان الكامل، كما كانه الإنسان الأرضي، ولذلك فقد دخلت المرأة مع الرجل في علاقته الفاعلية والانفعال.

وكما جعل الله النكاح عبادة للسر الإلهي¹³ فقد كانت المرأة باعتباره محتضنا لفعل النكاح عتبة أولى وأساسية لمعاقفة هذا السر بل كثيرا ما سدت مسده، فتولت الوجوه نحوها، وتعلقت الخواطر بقبلتها، ونفخت مزامير الشوق والحنين إليها "ويمكن القول تأسيسا على ما تقدم أن المرأة بوصفها المحبوبة، رمز الأنوثة الخالقة، للرحم الكونية، وهي بوصفها كذلك علة الوجود، ومكان الوجود، والعاشق لكي يحضر فيها يجب أن يغيب عن نفسه. عن صافته، يجب أن يزيل صفاته لكي يثبت ذات حبيبته.¹⁴ إذ أن وجوده متعلق بوجودها، وكيئوته رهن لتماهيه فيها، إذ لا وجود للثنائية والتعدد في هذا المقام. يقول ابن العريف (ت.526).¹⁵

فالمرأة، هي أى وأجمل تجلٍ للكمال الإلهي في الكون، وكأنهم أرادوا إنصاف المرأة، التي ظلت مهانّة في الجاهلية، ومغيبية طوال العصور الإسلامية المتأخرة، فبجّلوها بجعلها أجمل تجليات الوجود، حتى وإن لم تكن مقصودة لذاتها. وقد نجد كما سبق أن أشرنا تعدد أسماء محبوبات الشاعر في قصيدة واحدة، مثلما نجد في قول ابن عربي:

واذكرا لي هنداً ولبنى وسليبي وزينب وعنان

واندباني بشعر قيس وليلي وميمّي والمبتلى غيلان¹⁶

فهذه الأسماء، "أسماء محبوبات الشاعر، وهي طبعاً إشارة إلى محبوبة واحدة، لأن الصوفي لا يشرك في الحب أبداً، محبوه واحد لا يريم عنه، ومعشوقه ثابت لا يتغير، ولا يتبدل بل يعبر عنه بتعابير مختلفة، لماذا؟ لإبهام الهيام والصبابة، قد يكون ذلك، وقد

يكون سببه إظهار الحيرة، والصوفي الحق يرتاح إلى الحيرة، كما يرتاح الجاهلون إلى اليقين.

17

إن الشعراء الذين تقدموا علي ابن عربي قد توزعوا في تغزلهم إلى غزل بدوي وآخر عذري؛ ففي الغزل البدوي في ترجان الأشواق وقف ابن عربي على الأطلال يتحسّر على الأماكن التي عمّرتها المحبوبة، ثم يتغزل بها بحسب معايير الجمال البدوي كما يقول في قصيدته أسقفة من بنات الروم:

ما رحلوا يوم يانوا البُزْل
إلّا وقد حَمَلوا فِيهَا الطَّوَاوِيسَا
من كلِّ فاتكةِ الأَحاظِ مالكةِ
تخالها فوقَ عرشِ الدُّرِّ بَلْقِيسَا
إذا تَمَشَّتْ على صرحِ الرُّجَاجِ ترى
شَمْسًا على فَلَكَ في حَجَرِ أُدرِيسَا
تَحِيّ، إذا قَتَلْتُ بِاللَّحْظِ مَنْطِقَهَا
كَأَنَّمَا عِنْدَمَا تَحِيّ بِهِ عَيْسَى¹⁸

أما للغزل العذري فهو النوع الآخر للغزل في ترجان الأشواق، فإنّ الحبيبة قلما تظهر من خلال وصف المحب لها، بل تحتلّ مشاعر الأسمى واللوعة التي تنتاب الشاعر جزءا فراقه للحبيبة المساحة الأوسع، وهذه الأبيات التالية تلتبس بشعر الغزل العذري أيما التباس حتى أنّه ليخيّل لنا أننا كما نقرأ في شعر جميل بثينة وقيس بن ذريح وقيس ابن الملوّح الذي يعرف بالمجنون، إذ قلما تظهر الحبيبة بل تظهر مشاعر الأسمى واللوعة والتي تصل حد الموت. كما يقول في قصيدته "سلام على سلمى":

سلم على سلمى ومن حلّ بالحمى
وحمق لمثلي رقة أن يسلمًا
وماذا عليا أن تردّ تحية
علينا ولكن لا احتكام على الدمي
سروا وظلام الليل أرخي سدوله
فقلت لها صبا غريبا متبها
أحاطت به الأشواق صونا وأرصدت
له راشقات النبل أتان يما
فأبدت ثناياها وأومض بارق
فلم أدر من شق الحنادس منها
وقالت: أما يكفيه أيّ يقبله
يشاهدني في كل وقت.. أما أما؟¹⁹

انعكس الجمال في الصور فوق العهيم والعشق عند ابن عربي فأورت عندهم الفناء عند المشاهدة لهذا العالم لأنه يعكس له مرآة الحقيقة. إننا في قصائد الشعر الصوفي نجد تقنيات عديدة وظفها الخطاب الشعري في الغزل العذري، منها على سبيل المثال تجسيد

وصف المحبوبة وإعطاؤها الصفات الحسية والبشرية" لقد كان الشعر الصوفي معجباً بالشعراء العذريين يردد لهم أشعارهم وكأنها صادرة عنه" ²⁰ ويستعير منها الصور والتشبيهات التي تتناغم مع عالمه الخاص في التعبير والتوصيف. فجاءت نصوص الشعر الصوفي متقاطعة مع نصوص شعر الغزل العذري في لغتها وصورتها وتجسيدها للمحبوبة، إلى الحد الذي أخرج بعض نصوص الشعر الصوفي عن سياق الحب الإلهي وأدخله في سياق الحب الإنساني الحسي. ²¹

يقول في قصيدة "لا عزاء ولا صبر".

بان العزاء وبان الصبر إذ بانوا بانوا وهم في سويدا القلب سگان ²²

هذا وقد انطلقت تجربة الحب الإلهي عند ابن عربي من مفهومه حول وحدة الوجود" فجعل من الحب ديناً، فنظر إلى مختلف الأديان على أنها دين واحد تشترك في أصل واحد هو الحب، وتدعو الإنسان إلى ذلك الحب من خلال مخاطبة شيء واحد فيه هو القلب". ²³

ويرى ابن عربي: " أن الله يتجلي لكل محب تحت حجاب المحبوبة التي لا يعشقها إلا بقدر ما يتجلي فيها من مشابهة الألوهية". ²⁴

وبالجملة فإن ابن عربي اشتغل في ديوانه على الغزل الصوفي باعتباره صورة ينفذ من خلالها إلى معرفة المطلق، فجاء ديوانه " غنيا بحركات مشاهدة المتنوعة ممتلئاً بالأبعاد الروحية السامية والمعاني الصوفية العميقة". ²⁵

ولكننا حينما نقرأ الشعر الصوفي أننا نقرأ شعراً يتغزل الشاعر بمحبوبته من بني الإنسان، وذلك لصعوبة التمييز بينها وقد فطن شعراء الصوفية لذلك فقدم بعضهم بين يدي ديوانه مقدمة يشرح فيها غايته، دفعاً لسوء الظن. ²⁶

إن ابن عربي كان من أحرصهم على ذلك وقدم شرح ديوانه وسماه ذخائر الأعلام في شرح ترجمان الأشواق عن المحبة الإلهية والتزلات الروحانية. قد نبه في شعره إلى أن كل ما يذكره من صور حسية كالمعاني وورق الحما والسحب الباكية، إنما هو تلويح إلى تقليات أطواره وإشارة إلى ما يجد من المحبة، وإيماء إلى أسرار وأنوار لا يعلمها إلا من

كان مثله، وقد طلب من يقرأ ديوانه أن يصرف الخاطر عن الظاهر وأن يطلب الباطن حتى يقف علي حقيقة ما يعبر عنه، وذلك في قوله:

كل ما أذكره من طلل أو ربوع أو مغان كل ما...
 كل ما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهها
 منه أسراراً وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السماء
 لفؤادي أو فؤاد من له مثل ما لي من شروط العلماء
 فأصرف الخاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلم²⁷

يقول الدارسون لتراث ابن عربي إن مفهوم وحدة الأديان عنده يقوم على إرجاع حقيقة كل دين إلى جوهره الأساسي، وهو يعتقد أن كل الأديان في جوهرها واحدة. ويرى بأن الفروقات بين الأديان في العبادات والطاعات مجرد فروق لا تمس الجوهر إذ أن الحق واحد في أصله غير أنه في كل عصر انما يتجلى على لسان نبي من الأنبياء، بحسب لغة قومه وعلى هيئة ما يفهمون وطبقاً لما يعقلون.

نظن أن ابن عربي قد استمد عناصر غزله من هذا التيار التي تم ذكره، إذ ظهر لنا من خلال استقراءنا للديوان تأثره بكل واحد منها مع إدخاله بعض العناصر الأخرى. كما يرى: "فالشوق حركة روحانية إلى لقاء المحبوب، وحركة طبيعية جسدية حسية إلى لقاء المحبوب إذا كان من شكله ذلك المحبوب، ويجد الحركة الاشتياقية تطلب استدامة حالة الوصلة. ولذلك يهبج باللقاء فإن الشوق أبحر ما يكون إذا أصر المحب دار المحبوب، والشوق المبرح هو المظهر لما يكنه الجنان من الهوى، فإن الشوق أمر ذوقي يعرفه كل مشتاق من نفسه"²⁸.

الغزل الماخن (الغزل الحضري):

فهو غزل إباحي فالشاعر يعبر عن حب عابث مستهتر في معظم الأحيان كما نرى في غزليات عمر بن أبي ربيعة و الآخرين من الشعراء الذين تعاطوا بالغزل الماخن فإنهم قالوا شعرهم في كل فتاة سنحت لهم كما فعل ابن أبي ربيعة، وخاصة في مواسم الحج؛ فتعددت أسماء الفتيات اللاتي قال عمر ابن ابي ربيعة فيهن الشعر وهكذا تعددت أسماءهن في شعره مثل زينب، و سكيئة وعائشة.²⁹

أما ابن عربي في غزله الذي وضعه في ترجمان الأشواق، فإنه لا يأتي على ذكر لأساء من تغزل بهنّ ماسوى أماكن محدودة يذكر فيها اسم محبوبته المنفردة أي النظام ومن قوله:

نُظمت نظام الشمل فهي نظامنا غريبة عجماء تلهي العارفا³⁰
ديوان ترجمان الأشواق يعدّ شاهداً على أن تجربته الشعرية الصوفية صدرت عن حب حقيقي الفتاة هي ابنة شيخة في مكة، وتعد أكثر حسية وأشد تجسيدا لذات المحبوبة، كما في قوله:

مرضى من مريضة الأجفان عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت شجو هذا الحمام مما شجاني
بأي طفلة لعوب تهادي من بنات الخدور بين الغواني³¹

فلذا يتفق غزل ابن عربي مع غزل الشعراء الحضريين في عدد من النقاط الأخرى، ولكنه لا يعبر في حال من الأحوال عن حب عابث لاه؛ فغزله وغزل الحضريين في كثير من المواضع عند ذكرهما لمسرح الأحداث ومشاهدها، أي أماكن المقدسة الموجودة في الحجاز مثل أماكن ومواطن في مكة ومدينة كقول ابن أبي ربيعة:

صاد قلبي اليوم ظي مقبل من عرفات في ظباء تهادي عامدا للجمرات³²
وقد تطرق ابن عربي إلى هذه المعاني في الأبيات ومنها:
وكم قد قتلنا بالمحصب من مني نفوسا أبيات لدى الجمرات³³

وأيضاً من قوله:

ريح صبا يخبر عن عصر صبا بحاجرٍ أو بمنى أو بقبا.³⁴
إن غزل ابن عربي في هذا الديوان قد شهد بعض ملامح الجودة التي تعطيه هويته الخاصة على الرغم من تواصله الوثيق مع العشرين البدوي والحضري والعذري القديم. فمن ملامح الجودة اقتباسه من التراث الإسلامي وقصص الأنبياء كذكر الأنبياء إدريس وموسى و عيسى:

ما رخلوا يوم بانوا البرل العيسا إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
من كل فاتكة الأحاظ مالكة تخالها فوق غرس الدر بلقيسا³⁵

فشخصية المسيح رمز يستقطب الإنساني والإلهي ويضم النهائي واللائهائي، ويحتضن الدائر والأبدي، والشخصية من هذه الوجهة تبدو على حد تعبير ياسيرز شفرة من شفرات العلو التي يتكلم بها الوجدان الإنساني، وعن هذا التشكيل الرمز لشخصية المسيح الذي يجمع بين متقابلين.³⁶ بالإضافة إلى ذكره لشخصيات قرآنية أخرى مثل بلقيس وإبليس اللذين لو رأيا هذا الجمال الذي ابن عربي في محبوبته:

لو أنّ إبليس رأي من آدم نور مُحيها عليه ما أبي³⁷
ومن الظواهر الإسلامية التي أدخلها إلى غزله تشبيهه لحركة مشاعره داخل قلبه بطواف الرسول بالكعبة، وذلك عندما يقول:

تطوف يقلبي ساعة بعد ساعة
لوجي وتبرج وتلثم أركاني
كما طاف خير الرسل بالكعبة التي يقول دليل العقل فيها بنقصان³⁸
إن ما تمت الإشارة إليه يلخص بعض ملامح الغزل الذي ظهرت في ديوان ترجان الأشواق، ولكنه يطرح السؤال التالي:

هل يمكن تطبيق جميع الصفات التي يضيفها ابن عربي علي المحبوبة في عزله علي فتاة واحدة فقط يفترض أن تكون نظام، أم توحى القصائد المتعددة بشخصيات متعددة يتغزل بها، وتختلف الواحدة منها عن الأخرى؟
فابن عربي يدعي أن نظم هذا الديوان كان للتغزل بالنظام³⁹
ومن خلال استقراء أبيات الديوان. أشار إلى النظام إشارة واضحة صريحة في الأبيات التالية:

طال شوقي لطفلة ذات نثر
من بنات الملوك من دار فرس
ونظام ومنبر وبيان
من أجل البلاد من أصهان
هي بنت العراق بنت إمامي
وأنا ضدها سليل يمامي⁴⁰

الغزل العفيف (الغزل العذري):

أبدى ابن عربي كأسلافه من الشعراء العذريين، مشاعر اللوعة والأسى على فراق المحبوبة؛ فدموعه منهمة، ولغزاتها استطاعت أن تكون نهرا غرق الشاعر العاشق فيه. ولذا

انطلق ابن عربي ليطلق عنان الخيال لمشاهداته الغزلية اللطيفة والصورة التقليدية في الأبيات التالية:

فأرسلت دمعي أمام الركاب فقالوا مني سأل هذا النهر
وقفا بي علي الطلوا قليلا تنبأكي بل أبك مما دهاني
من ظلّ في عبراته غرقاً وفي نار الأسي حرقاً ولا يتنفس⁴¹

الغزل العذري نفس ممزقة بين الانجذاب المادي للجسد والتعلق الروحي بالمحبوب من حيث هو إنسان بالروح قبل الجسد وما العفة في شعره إلا نتيجة تلقائية للإيمان بالقيم الإسلامية. أما التمتع عند المقدره على الوصال وهو ما يسمي عادة بالأفلاطونية في الحب، تعبير عن عواطفها وأحاسيسها الإنسانية التي فطر عليها إلا أن التطبع والتخلق بأخلاق الدين والتحلي بسماة مهبذة يجعلان هذا المحب متعفف مترفع يسمو في حبه عن العلاقة الجنسية والحق أن أصحاب هذا الحب شطحوا شطحات صوفية في أشعارهم ونظموا ما يسمي بالحب الإلهي أو العشق الإلهي.⁴²

وأما تخلل الألم نسيج التجربة الشعورية عند العذريين، أصبح الحب عندهم مرادفاً للألم وهو الأثر النفسي الحاد في نفوس فشلت في أن تحب وفشلت في أن تنسى ولم يبق لها إلا أن تظل في عذاب مقيم، عذاب ليس من نهاية له. وقد تجلّى القلق في أمنيات الشعراء والعلاقة بين القلق والأمني علاقة قوية، فالأمنية رغبة غير محققة، ويرتبط بمحاولة تحقيقها إحساس القلق أو أن بواعثها داخل النفس بواعث قلق وألم على وضع قائم يراد تغييره أو إصلاحه وقد فشل العذريون في حبهم وأحسوا في أوقات أن الارتباط الطبيعي بمحبتهم لا سبيل إليه ولذلك فقد جنحوا إلى عالم الأمني يحققون فيه ما قد عجزوا عن تحقيقه في الواقع. كما يقول ابن عربي:

قف بالطلول الدراسات بلطع واندب أحببتنا بذاك البلقع
يا طللا عند الأثيل دارسا لاعبت في خردا أو أنسا⁴³

إن ابن عربي من يضرب لحبيته موعدا في مكان محدد رامراً بذلك إلى معنى صوفي خاص⁴⁴ كل ذلك بقلب الغزل العادي أمّا مسحة البداوة فقلما تغيب عن هذا

الغزل الصوفي، إذ يستهل ابن عربي قصيدته مثلاً بالبكاء على الأطلال، والطلول هب رمز لأثر المنازل الإلهية بقلوب العارفين والدراسة صفة إلى انتقالها من حال إلى حال. كما أنّ ابن عربي يذكر هؤلاء الشعراء العذريين مصرحاً بأنّ له فيهم أسوة وذلك بقوله:

لنا أسوة في بشر هند وأختها وقيس وليلى ثم ميّ وغيلان⁴⁵

وهو يتفق أيضاً مع الشعراء العذريين في تعبيره عن ألم الفراق، ولكنه يختلف عنهم في تغنيّه بأوصاف المحبوبة الجسدية؛ فمن المعلوم أنّ همّ العذريين الأساسيّ كان وصف ما يصيبهم من ألم الفراق، وقلّ اهتمامهم بوصف المحبوبة. أما عندما كانوا يصفونها، فقد كان ذلك الوصف يحتلّ مكانة ثانوية في شعرهم، ولذلك كانت المحبوبة نادراً ما تظهر في شعر العذريين، بل كان شخص الشاعر المتألم المشتاق يحتلّ ساحة الواجحة الأكثر بروزاً.

من الملاحظ أنّه قلماً يوجد في غزل الشعراء العذريين حديث عن بهجة اللقاء أو كلام عن فرحة الوصال أو عن تحقيق الحبّ لغاياته، مثلاً يُلاحظ عند الشعراء الجاهليين كامرئ القيس والأعشى. فإذا حدث اللقاء فإنه يكون لقاء عابراً سريعاً لا يروي غلة ولا يطفى لهيباً، بل أكثر ما يكون اللقاء مناسبة لتبادل التجوى والشكوى، وزاد الحزن أكبر قادم، ويأس وتشاؤم تزخر بها أشعارهم⁴⁶. هذا ما لا يلحظ في ديوان ترجان الأشواق، إذ على الرّغم من وجود مشاعر الحزن والأسى والدموع والبكاء، مثلما نرى في قوله:

من لفتي دمتعه محرقة أسكرة خمر بذاك الفلج

من لفتي زفرته محرقة تيمه جمال ذاك البالج

قد لعبت أيدي الهوى بقلبه فما عليه من حرج⁴⁷

إلا أنّه يظلّ هناك تعبير عن فرحة اللقاء بالمحبة. وتنعكس مثل هذه الأجواء الزاهرة في ترجان الأشواق في وصفه المكان الذي تطأه المحبوبة، إذ يصير قطعة مناجتة ماءها وفير والخضرة تزيئها، فهو مكان تعجّ فيه الحياة. هذا واضح في قوله:

فكلّ خراب بها عامر وكلّ سراب بها غادق

وكلّ رياض بها زاهر وكلّ شراب بها رائق⁴⁸

وإذا حلّقنا في أجواء الغزل الصوفي، على ندرته، لوجدناه يقترب من تلك العوالم الشيقة الفياضة، إذ أنّ إلهاماتها ليست وليدة عاطفة غيبية فحسب، بل إنّ معالم هذا

الشعر الروحي الرمزي الرقيق هي وليدة معرفة ذوقية أيضاً، حيث تألق هذا اللون من الشعر في العصرين الأموي والعباسي بعد تطور الحياة الروحية في الإسلام. إذن فالغزل الصوفي ليس وليد عاطفة دينية مجردة، بل هو نتاج مراحل معرفية، وتجليات ذوقية بحتة، مرّ بها الشاعر عبر تطورات معينة، يلتقطها بقلمه الساحر العفوي التلقائي، يبد أنه لا يصورها كما يحدث في المسائل الفكرية والنظريات الفلسفية، والقواعد المنطقية وإنما يعبر عما يختلج في نفسه، ويضطرب في قلبه، وجوانحه من خلجات ومشاعر غير مألوفة، إذ يصوغها بقال فني ماهر نعم.. لمست فيه غلياناً يفور في أعماق ذاته، حيث يرى في داخله ما لا يرى.. بهدوء ونقاء رتيب عجيب، ولسان حاله يموج ويهدر، وقد تطرق ابن عربي إلى الحب، فجعلوا منه النور الذي يُستضاء به، والسر الذي نتكى عليه، والمشعل الذي يسير الصوفي على هداية.

يحتل ابن عربي منزلة عالية بين أعلام التصوف وبين شعراء عصره، ويمتاز شعره بالجودة والبلاغة وبروعة كبيرة تجذب القاري، فزاه في ديوانه ترجمان الأشواق، قد استولت عليه النشوة وموهبة البيان في كل جانب، فأنطقته بهذه الحكمة الرائعة. لقد كان ابن عربي يفيض بالوجد والحب والشوق ويتجلي هذا الحب غب كتابته لديوان ترجمان الأشواق، وهذا الديوان قد احتل منزلة رفيعة في الحب ولا ريب ثروة أدبية وصوفية كبيرة، وفيه قصائد في حب الله تعالى، يعدّ ابن عربي صاحب مذهب ومؤسس مدرسة، فيلسوف ولعلّ تفكيره الفلسفي يتكئ على العقل وغزله مملوء بالصور الصور الشعرية العربية والمعاني الصوفية العميقة.

النتيجة:

إنّ ابن عربي يتكئ في شعره إلى سلوك سبيل الرمز في غزلياته، ونرى بأنه علاقة وطيدة بين تجربته الصوفية وتوظيف الرمز في غزله، انطلاقاً من أنّ رؤيته الصوفي للكون مغايرة لرؤية الشاعر، وأكثر ما يميز في شعره أن لغته الغزلية في إطار الشعر الصوفي لغة صعبة وثقيلة ولكنه يتمكن من أن يجسد التصوير الدقيق والجميل في غزله الصوفي، فإنّ شعر محي الدين ابن عربي مليء بروح صوفية رفيعة، وفيه إشراق الصوفيين، كما نرى بأنه يقوم بتصريح لفظ المرأة في غزلياته ويؤكد على خصوصية الحوار الصوفي الفنية والجمالية،

والتي تثبت له انتماءه الأدبي، منذ أن ترجان الأشواق في لغته ومضامينه مألوفة ومعانيه واضحة وعار عن إبداع في التصوير والخيال في أكثر الأحيان. ولكنه ابن عربي من رواد المتصوفة الذين قدموا غزلاً صوفياً لا يختلف في وجه من الوجوه عن الغزل الحسي عند العرب ولقد عرضت نوعية الغزل الذي اعتمده ابن عربي في ترجان الأشواق، الذي أتى غزل ابن عربي في ديوانه مشوباً بالمذاهب الغزلية التي كانت سائدة، بحيث كان غزله مزيجاً من الصريح والعذري، إلى جانب بعض مظاهر الجودة التي ميزت غزل ابن عربي وقد يكون شعر ابن عربي أوضح تعبيراً ومن كتاباته النثرية، ويركز في ديوانه ترجان الأشواق وهو التوازي ما بين العالم البشري و العالم الروحاني، اللغة فيه أداة أساسية لصياغة عالم رمزي ذي دلالات كثيفة تحيل إلى عالم آخر مفارق لها، ولكنه عالم خفي لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال أداة التأويل.

الهوامش والمراجع والمصادر :

المراجع والمصادر:

- 1- ابن عربي محيي الدين.(1978)، ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق، بيروت: دار صادر.
- 2- ابن عربي محيي الدين.(2005)، ديوان ترجمان الأشواق، بيروت: دار المعرفة.
- 3- ابن عربي محيي الدين.(2004)، رسائل ابن عربي، وضع حواشيه محمد عبدالكريم النمري، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.
- 4- ابن عربي محيي الدين.(1999)، الفتوحات المكية، تحقيق احمد شمس الدين، ج1، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- 5- ابن عربي محيي الدين.(1998)، لوازم الحب الإلهي، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق: دار معد والنشر والتوزيع.
- 6- ابن العريف.(1933)، محاسن المجالس، تحقيق آسين بلاتيوس، باريس: المكتبة الشرقية.
- 7- ابن العماد العكري الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد.(1986)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، بتحقيق عبدالقادر الأرنؤوط - محمود الأرنؤوط، المجلد السابع، دمشق: دار ابن كثير.
- 8- ابن الفارض، ديوان ابن الفارض.(2007)، تحقيق عبد الخالق محمود، ط3، القاهرة: مكتبة الآداب.
- 9- أحمد سعيد إسبر علي المعروف بأدونيس.(1992)، الصوفية والسورالية، بيروت: دار الساقى.
- 10- بلاثيوس ميغل أسيين (1898)، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمة عبدالرحمن بدوي، لبنان: دارالقلم.
- 11- بلاثيوس أسين.(1956)، ابن عربي، حياته ومذهبه ترجمة عبدالرحمن بدوي، الجزء الأول، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- 12- الحوفي، أحمد محمد.(1972)، الغزل في العصر الجاهلي، ط3، مكتبة النهضة.

- 13- خفاجي، محمد عبدالمعتم. (1980)، الأدب في التراث الصوفي، ط1، القاهرة: مكتبة دارغريب.
- 14- عاطف جودة نصر. (1978)، الرمز الشعري عند الصوفية، ط1، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.
- 15- عاطف جودة نصر. (1994)، شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي، بيروت: دار الأندلس.
- 16- عبدالمعطي، فاروق. (1993)، ابن عربي (حياته، مذهبه، زهده)، سلسلة الأعلام من الفلاسفة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- 17- عدنان العوادلي. (1986)، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، ط1، العراق: وزارة الثقافة والإعلام.
- 18- قدور، رحاني. (2005)، ابن عربي وديوانه ترجان الأشواق، الجزائر: دار الكتاب العربي.
- 19- محمد، غنيمي هلال. (1976)، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، ط2، القاهرة: مطبعة نهضة مصر.
- 20- محمد مصطفى حلمي. (د.ت)، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، القاهرة: دار القلم.
-
- 1 - عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، بتحقيق عبدالقادر الأرنؤوط - محمود الأرنؤوط، المجلد السابع، دمشق: دار ابن كثير. الحنبلي، 1986، 7، ص 333.
- 2 - أسين بلاثيوس ميغل، ابن عربي، حياته ومذهبه ترجمة عبدالرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، 1956، الجزء الأول، ص8.
- 3 - ابن عربي محيي الدين، ديوان ترجان الأشواق، دار المعرفة، بيروت، 2005، ص11.
- 4 - ابن عربي محيي الدين، رسائل ابن عربي، وضع حواشيه محمد عبدالكريم النمرى، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 2004، ص3

- 5 - ابن عربي محيي الدين، لوازم الحب الإلهي، تحقيق موفق فوزي الجبر، دار معد والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1998، ج1، ص838.
- 6 - المصدر نفسه، 242 / 1
- 7 - ابن عربي، 2005، ص12
- 8 - المصدر نفسه، 2005، ص13
- 9 - المصدر نفسه، 2005، ص109
- 10 - المصدر نفسه، 2005، ص24
- 11 - ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، تحقيق عبد الخالق محمود،، مكتبة الآداب، القاهرة، ط3، 2007، ص232.
- 12 - ابن عربي، 1998، 124 / 1
- 13 - ابن عربي، 1998، 146 / 1
- 14 - أحمد سعيد إسبر علي المعروف بـ أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقى، بيروت، 1992، ص107.
- 15 - ابن العريف، محاسن المجالس، تحقيق آسين بلاتيويس، المكتبة الشرقية، باريس. 1933، ص97.
- 16 - ترجمان الأشواق، 2005، ص83
- 17 - خفاجي، محمد عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة دارغريب، القاهرة، ط1، 1980، ص183.
- 18 - ترجمان الأشواق، 2005، ص30.
- 19 - قدور، رحمانى، ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2005، ص41.
- 20 - عدنان، العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط1، 1986، ص246.
- 21 - محمد، غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1976، ص138.

- 22 -ترجان الأشواق، 2005، ص 47.
- 23 محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم، القاهرة، د.ت، ص 132.
- 24 -عبدالمعطي، فاروق، ابن عربي(حياته، مذهبه، زهده)، سلسلة الأعلام من الفلاسفة، دار الكتب العلمي، بيروت، ط 1، 1993، ص 148.
- 25 - قدور، رحمان، ابن عربي وديوانه ترجان الأشواق، ص 95.
- 26 - عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت، 1994، ص 113.
- 27 -ابن عربي، 1978، ص 5
- 28 - لوازم الحب الإلهي، 1998، ص 57
- 29 -الحوفي، أحمد محمد، الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة النهضة، ط 3، 1972، ص 57.
- 30 - ابن عربي، 2005، ص 127
- 31 - المصدر نفسه، ص 100
- 32 -عمر بن أبي الربيعة، 1996، ص 85
- 33 - ابن عربي، 2005، ص 185
- 34 - المصدر نفسه، ص 132
- 35 المصدر نفسه، ص 17
- 36 -جودة نصر، 1978، ص 456
- 37 - ابن عربي، 2005، ص 130
- 38 - المصدر نفسه، ص 60
- 39 - المصدر نفسه، ص 9
- 40- المصدر نفسه، ص 84
- 41 - المصدر نفسه، ص 79، 105، 89
- 42 - يوسف، اليوسف، الغزل العذري دراسة في الحب المقموع، دار الحقائق، لبنان، 1982، ص 16

- 43 - ابن عربي، 2005، ص 123
44 - ابن عربي محيي الدين، 1978، ص 116.
45 - ابن عربي، 2005، ص 63.
46 - الغزل في الشعر العربي، ص 64.
47 - المصدر نفسه، ص 175.
48 - المصدر نفسه، ص 140.